

تذكير بخطورة الكلمة ، ووجوب التحاكم إلى الشريعة

في الحقيقة يا إخواني أود أن أذكر نفسي وإياكم بخطورة الكلمة فإن خطبها جليل ، وخطرها عظيم ، فقد تذهب بصاحبها إلى أعلى عليين ، وقد ترمي به في أسفل سافلين ، والقرآن الكريم يبين لنا هذه الحقيقة أعظم بيان إذ يقول سبحانه وتعالى في محكم آياته: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَشْرَبَتْ ثَابِتًا وَعَرْوَةً فِي الْأَشْجَالِ لِذَاتِ الرَّيْثِ أَكْثَرًا ۚ كُلٌّ فِي يَدِ إِلَهِهِ وَبِهِ يُبْصَرُ ۚ اللَّهُ الْأَمْتَلُ لِلذَّاتِ لِعَاقِبَتِهَا تَذَكَّرُونَ ۝١١٠ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝١١١﴾ (١١).

والكلمة الطيبة هاهنا هي كلمة التوحيد، ودلت نصوص الشرع على أن الكلمة الطيبة يُرْفَعُ بها عملُ المؤمن إلى السماء. والكلمة الخبيثة من سخط الله عز وجل توردهم المهالك.

فَعَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ، قَالَ: مَرَّ بِهِ رَجُلٌ لَهُ شَرْفٌ، فَقَالَ لَهُ عَلْقَمَةُ: إِنَّ لَكَ رَجْمًا، وَإِنَّ لَكَ حَقًّا، وَإِنِّي رَأَيْتُكَ تَدْخُلُ عَلَيَّ

(١) سورة: إبراهيم الآيات: ٢٤-٢٦.

هُؤُلَاءِ الْأَمْرَاءُ، وَتَتَكَلَّمُ عِنْدَهُمْ بِمَا نَسَاءَ اللَّهُ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ، وَإِنِّي سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ الْخَارِثِ الْمُرْسِيَّ، صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِهَا سُخْطَهُ إِلَى يَوْمِ بَلْقَاءِهِ».

قَالَ عَلَقَمَةُ: فَانظُرْ وَيْحَكَ مَاذَا تَقُولُ؟ وَمَاذَا تَتَكَلَّمُ بِهِ، قَرُبَ كَلَامٍ قَدْ مَنَعَنِي أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ، مَا سَمِعْتُ مِنْ بِلَالِ بْنِ الْخَارِثِ ^(١).
 فالى من يقول: الشريعة لا تصلح لعصرنا.
 فالى من يقول: الشريعة عودة إلى الوراثة.
 فالى من يقول: الشريعة رجعية وتخلف.

نذكره بقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُونَ أَنفُسَهُمْ فَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٥٠﴾﴾، قال غير واحد من أهل العلم: التحاكم إلى

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه (٣٩٦٩) كتاب الفتن - باب كف اللسان في الفتن، وصححه الألبان في (الصحيحة) (٨٨٨).

الطاغوت هو التحاكم إلى غير الكتاب والسنة، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١).

قال العلامة السعدي: فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن تركه، مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين (٢).

ونذكرهم بالأدب مع الله والأدب مع رسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٤)، قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٥) يا أيها الذين أقرؤا بوحدانية الله، ونبوة نبيه محمد ﷺ ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (٦) يقول: لا تعجلوا بقضاء أمرٍ في حروبكم أو دينكم، قبل أن يفضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر

(١) سورة: النساء الآية: ٦٥.

(٢) تفسير السعدي: (١٨٤).

(٣) سورة: البقرة الآية: ١٠٤.

(٤) سورة: الحجرات الآية: ١.

رَسُولِهِ، مَحْكِيٍّ عَنِ الْعَرَبِ فَلَانَ يُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيَّ إِمَامِيهِ، بِمَعْنَى
يَعَجِّلُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ذُوْنَهُ...»^(١)

وهكذا ينبغي أن يكون العبد مع ربه، فالله تعالى هو السيد
وأنت عبده، ولا يصح أن يكون للعبد اختيار مع سيده فضلاً عن
معارضته، فالعبد عليه السمع والطاعة ؛ لا سيما إذا كانت الطاعة
فيها النفع للعبد.

فالله تعالى خلق الخلق ليعبدوه ويوحده ويطيعوه، ﴿وَمَا
خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) ﴿٥١﴾، وقال الله تعالى: ﴿لَا يَكُ
رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
يَغْشَى السَّمَاءَ الَّتِي يُطَوِّقُهَا عِزَابُ الْمَلَائِكَةِ خَبِيرًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بَأَمْرِهِ آلَاءُ
الْحَقِّ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾^(٣) ﴿٥٢﴾، يعني: أن الله متفرد
بالخلق وهو الإيجاد من العدم، ومتفرد بالأمر وهو الشرع.

فالخلق بيان لتوحيد الربوبية، والأمر بيان لتوحيد الألوهية،
ولا يكون العبد مؤمناً إلا بتحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية
معاً، فالذي يقول: لا للشريعة، كأنه يقول: نعم لتوحيد الربوبية،

(١) جامع البيان: (٢١/٣٣٥).

(٢) سورة: القدريات الآية: ٥٦.

(٣) سورة: الأعراف الآية: ٥٤.

ولا لتوحيد الألوهية، وهذا خروج عن دين الله عز وجل، نسأل الله أن ينجي قوما من الضلال.

قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٣١): «وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يُنَكِّرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمَلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدْلٍ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَرَءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِإِضْطِلَاحَاتِ، الَّتِي وَضَعَهَا الرُّجَالُ بِلَا مُسْتَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ، مِمَّا يَضْعُمُونَهَا بِأَرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ النَّارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُودَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جَنْكِزْ خَانَ، الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ السِّاقِ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدْ اقْتَبَسَهَا عَنْ شَرَائِعِ نَسِيٍّ، مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ، فَصَارَتْ فِي بَيْنِهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا، يُفَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ. وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ [٥٠] فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ﴾ أَي: يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ، وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أَي: وَمَنْ أَعْدَلَ مِنَ اللَّهِ

فِي حُكْمِهِ لِيَمُنَّ عَقْلٌ عَنِ اللَّهِ سُرْعَةً، وَأَمَّنَ بِهِ وَأَيْقَنَ وَعَلِمَ أَنَّهُ تَعَالَى
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَالِدِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ
الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

